الجوسق الجبلي

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان

بقلم السيد كمال الحريري

لم يكن جوسق چورانباش ليمتاز من بقية الجواسق « الألبية » في نسق أوطراز ، شكله كثير على أقدام الجليد وفي حدود الجبل الصخرية ، التي تؤدي إلى ذرى الآلب الثلجية ، إنما كان يفرده عن أنداده أنه في الطريق المنتهية إلى « جه ى » ، وأنه الملاذ الذي يفيء إليه السائحون في غدوهم ورواحهم

كان يظل نصف السنة مأهول الربع بسكانه ، مأنوس الساحة بأهله ، حتى إذا ابتنى الثلج قبابه في الوادي ، وأقام الجليد سدوده على مسالك « لوه شي » ظعن عنه « الأب هوسار » مع امرأته وأولاده ، تاركاً على حراسته دليلين أمينين : هما « كاسبارهاري » الكهل ، و « أورليك » الشاب ، ثم « سام » كلب ضخم من كلاب الجبل . في هذا السجن الثلجي الموحش كان يقيم الرجلان حتى إقبال الربيع ، وليس لسيهم من متع الحواس ومرائي النظر غير هضب من الثلج لا تحدّ ، وكثب من الجليد لا تنتهي ، وغير القمم الشم اللامعة ، والذري البيض الساطعة ، تنطلق هضبة « بالمورن » بسور من زمهرير وصقيع . لقد كانوا طيلة شهور الشتاء في حصار هائل من جيوش الثلج اللجبة : تحدق بهم من كل مكان ، وتأخذ عليهم كل قطر ، ثم لا تكتفي حتى تزحف على الجوسق بقضها وقضيضها ، فتغمر الباب والنوافذ ، وتجلبب السطح والجدُر ، وتترك الرجلين في قبر بارد موحش ، كفنته هذه الثلوج الرحبة الآفاق .

في هذه السنة ، وقد أقبلت طلائع الشتاء ، وخلت الطرق من العابرين والسائحين ، تحتم على أسرة « هوسار » مبارحة الجوسق كعادتهم كل شتاء ، فكنت ترى ثلاثة بغال تترك الفندق الجبلي ، موقرة الظهر بالملابس والأمتعة ، محملة بالثياب والأحزمة ، يستاقها أبناء الموسيو هوسار وتتبعهم الأم چان هوسار وابنتها لويز ، وقد امطتا بغلاً رابعاً ، على حين سار الأب « هوسار » على أثرهم مصحوباً بدليليه الأمينين ، وقد كان عليهما حراسة هذه القافلة ورعايتها حتى حدود القمة التي تبتدىء منها طريق « لوه شي »

أحدقوا أولاً بالبحيرة الصغيرة المنجمدة ، فطالعت أبصارهم أمواهها البراقة وجليدها المتألق ، وهو يلتمع في أعماق سهل ضيق يمتد وسيعاً أمام الجوسق . ثم سايروا الوادي المتلألىء وقد التمع في جنباته سناء الثلج ، وشع في حواشيه بريق الجليد ، وتحلقت حوله قمم بواذخ وذرى شوامخ غرقت كلها في بحر لجي أبيض من جليد وصقيع

وكانت أشعة الشمس وهي تسترسل على بسط الثلج الوسيعة ، وحزم النور وهي تنسكب على صحراء الجليد البديعة ، تتعاكس وتتراقص ويموج بعضها في بعض ، حتى لتكاد تخطف البصر وتعشي النظر

لم تكن نأمة تتحرك وسط محيط القمم الثلجية ، ولا ركز يحس خلال هذه الصحراء الجليدية ، إنما هو السكون العميق والعزلة الساكنة تضربان بجرانهما على كل شئ

وتستمر القافلة في تسيارها ، فإذا «هورليك» الدليل السويسرى ذو السيقان الطويلة المنتصبة يخلف وراءه زميله الكهل « كاسبار » والأب هوسار ليلحق بالبغال الأمامية التى كانت تقل الأم جان وبنتها لويز

وتنظر الفتاة إليه يدلف نحوها ، فتكاد تهم باستدعائه بعين فيها التوسل والحزن . كانت كاعباً قروية شقراء . فى خدودها النضر لون الحليب ، وفى غدائرها الصفر تموجات باهتة لا لون لها ، صبغتها بها إقامتها الطويلة وسط الجلامد والثلوج ، ووصل الفتى إليها ، فوضع يده على كفل دابتها وراح يطابق خطاه الشديدة على خطاها الوئيدة . وتأخذ الأم جان فى الحديث إليه عن شئون الجوسق وتدبير الفندق الجبلى الذى وكل إليه ورفيقه أمر حراسته ورعايته . كانت هذه هى المرة الأولى التى ينزل بها العالم فى أعالى هذا الجبل الثلجي ، على حين أن زميله الكهل كان قد استتم فى هذه السنة خمسة عشر شتاء قضاها سمير الثلوج أليف الجليد فى هذا الجوسق القصى النائى الذى يدعونه جاورانباش . لذلك كان الفتى السويسرى أورليك يصغى لتعاليم الأم وأوامرها دون أن يفقه لها معنى . وبينما كان يجيب الأم من حين لآخر قائلاً :

— أجل أيتها السيدة ، كما تشائين أيتها الأم « هوسار » ، كانت نظراته عالقة بوجه الفتاة لا تريم

وبلغوا بحيرة دوب فبدت لهم فى غور الوادى السحيق الضيق بحيرة مستطيلة الصفحة منجمدة السطح مشعشعة الضوء

وبينما كانوا يقتربون من حنية «جه مى» حيث ينحدر الطريق إلى لوه شى ، انكشف لهم الأفق الرحب عن واد سحرى رائع ، لا يتمثل لخيال ولا يتراءى فى حلم : هو وادى الرون ، توشى جنباته أطرزة الشفق ، وتموّه حواشيه ألوان قوس قزح . وعلى البعد من هذا الوادى الحبيب ، حيث يسافر النظر فى مسافة لا تنتهى ، كانت تقوم طائفة من قنن جبال ثلجية ، مختلفة التكوين متباينة الشكل : فهذه قمة ميشابل قد طعن قرناها فى أديم السماء ، وتلك كتل ويسيهوارن الهائلة تملأ الرحب ، وهاتيك أهرام « سيرفين » تسد الفضاء ؛ وهناك تحت هذه المشارف العالية والقلاع المرتفعة ، تراءت لهم قرية لوه شى ، وهى تقبع فى هاوية هائلة بعيدة كانت تظهر فيها أبنيتها ومساكنها كأنها حبات من الرمل الأبيض نثرت فى مغارة واسعة سوداء

وهنا تقف البغال على جانب الطريق المتعرجة المتموجة التى تتقاطع وتنحوى ، وتتمعج وتتلوى ، حتى ينتهى بها المطاف إلى هذه القرية المحبوءة المستترة ؛ وتقفز المرأتان فى خفة قرويات الجبل على بساط الثلج ثم يتبعهما الزوج « هوسار » وهو يقول للدليلين :

— إلى اللقاء أيها الصاحبان فى السنة المقبلة ، إنى لأتمنى لكما إقامة هنيئة هذا العام ، ويتعانق المشيعون والظاعنون كل بدوره ، حتى إذا جاءت نوبة أورليك الدليل الشاب غمغم فى أذن الآنسة لويز وهو يعانقها :

— لا تنسى أن هناك فى الأعلى رجلين وحيدين .

فتجيب الآنسة فى همس : كلا ، كلا . وحين أزف الترحل أشار الأب بيديه تسليمة الوداع ، ثم هبط

وأسرته المنحدر ، وما هى إلا دقائق حتى ابتلعهم الطريق بين طواياه

وينثنى الدليلان إلى الجوسق الموحش جنباً إلى جنب ، بخطوات ثقيلة وصمت طويل . لقد انتهى كل شىء ، وسيظلان خمسة أشهر منعزلين فى هذه الجبال الثلجية المتناثية الأرجاء ، وراح الكهل يقص حكاية حياته الجبلية على زميله الشاب . لقد كان قاطناً هذا الجوسق بصحبة رفيق قديم قعدت به الشيخوخة عن معاودة هذه الحياة ، لأن حادثاً من حوادث القدر قد ينكبه فى جسمه الموهون بين هذه الجبال الثلجية . لم يتطرق السأم إلى نفسيهما ولا أفسد النزاع ما بينهما من الود فى ذلك العام . وفيم النزاع والشجار ، وكل يضطلع بأكلافه ويقوم بواجبه ؟ ! على أنه بالرغم مما كان يحدق بهما من مُنطلَق السآمة والوحشة ، فقد خلقا لنفسيهما ملاهى للفراغ ومسليات للحواس . كان أورليك يصغى لقول زميله والطرف خفيض والنفس والهة والفكر شارد ، يفكر فى أولئك الراحلين الذين تحملوا منذ قليل

ويقترب الرجلان من الجوسق ، فاذا نكتة سوداء لاتكاد تبصر ، تسجد فى خشوع تحت أقدام الثلج الجبارة ، وتتمرغ فى ضراعة على ساحل محيط الجليد المثلج الوسيع

ويلجان باب الجوسق فيتلقاهما «سام» وهو كلب ضخم جبلى ، ثم يتمسح بهما ويقرع الجو بنباح صاخب ، ثم يتواثب عليهما فى نشاط ومرح ، ويقول الكهل كاسبار وقد استقر به المكان :

— وطن نفسك يا صديقى على أعمال المنزل ، فليس لدينا نساء لادارته . نحن الآن فى حاجة إلى الغداء ، فهيا قشر البطاطس . ثم جلس الاثنان على مقعد خشبى وأنشآ يطبخان الحساء

وفى صبيحة اليوم التالى كانت الساعات تمر ثقيلة مسئمة أمام أورليك ، وبينما الكهل كاسبار يدخن فى سرور أمام الموقد ، كان الشاب أورليك يطل من خلال النافذة على جبال الثلج وهى تلتمع وتتوهج ، وكثبان الجليد وهى تضىء وتتموج

ثم خرج أورليك من الجوسق ، فأعاد رحلة البارحة ، وجعل يتعرف على الأرض آثار حوافر البغال التى راحت بلويز الشقراء . حتى إذا بلغ منشعب الجبل ، وشارف الطنف الذى يطل على قرية لوه شى انطرح على شفير الهاوية وراح يرقب فى نشوة ولذة بيوتها المبعثرة . لم تكن جيوش الثلج قد دهمت تلك البئر العميقة بعد لأن غابات الصنوبر الشجراء ، وأدواح السرو الخضراء ، كانت تقوم كالجند المدافع عن هـذا المضيق الذى لاذت به القرية ؛ وكان الثلج لا يسعه إزاء هذا السور من الشجر إلا أن يتساقط صاغراً على أقدام الأدواح ، دون أن يجد ثلمة ينحدر منها لغزو القرية . وإذن فان لويز الجميلة هناك الآن فى إحدى هذه الأمكنة الدكناء . كم يقوم بنفس الفتى أن يهبط إليها ما دام ذلك بمكنته هذه اللحظة ! ولكن وا أسفاه لقد انحجبت الشمس وراء قمة ويلستروبيل الهائلة

وآب الفتى إلى الجوسق فألفى الأب كاسبار ينفث دخان سيجاره ، وحين شاهد الكهل رفيقه عائداً قدم إليه ورقاً للعب ، ثم جلسا إلى طاولة وجهاً لوجه وطفقا يلعبان « البرسيك » حتى إذا سئما اللعب انكفآ إلى المطبخ فطعما ثم رقدا

وتوالت الأيام على هذا القرار : مضيئة باردة من غير ثلج جديد ، وعقيب كل ظهر كان الأب كاسبار يروّح عن نفسه بصيد النسور الجبلية ، أو قنص نوع من العصافير يقحمها طيشها هذه الجبال ، على

حين كان أورليك يعيد بدأه على عوده أو عوده على بدئه فيقصد إلى ذلك الطف الذى يشرف على القرية ليحلم هناك ساعة أو ساعتين ثم يعود إلى الجوسق فيلعب الورق أو « الدمينو » مع زميله كاسبار ، ويكسب أو يخسر هنات قليلة كانا يجعلان عليها مدار اللعب لبعث نشاطه وإذكاء حدته

فى ذات صباح وقد استيقظ الكهل قبل زميله الشاب ، دعاه إلى النافذة ثم أشار إلى غمامة شهباء تزحف إليهما فى سرعة وهوْل ، وتأخذ على الجو منافذ الأقطار ، وما هى إلا أن أقبلت خرساء عمياء حتى انحطت بكلكلها على الجوسق المسكين ، وإذا فرش الثلج الوثيرة الثقيلة تغطى الباب ثم تزحف على النوافذ ثم تصعد إلى السطح فيغرق الجوسق كله فى موج من الثلج والصقيع

استمرت هذه العاصفة الثلجية أربعة أيام بلياليها ، حتى إذا انفثأت حدتها وهدأ غضبها تحتم على الدليلين — كى يريا نور الحرية — أن يزحزحا عن الباب والنوافذ الثلج المركوم ويحتفرا فى صخور الجليد مسالك للمرور ، ويتم لهما ذلك فى بضعة أيام فيلزمان الجوسق ، ويقبعان أمام المدفأة إلى أن يأذن الله بفرج من عنده

لم يكن أحد منهما ليفتات على زميله فى مزاولة أعمال المنزل أو ممارسة شؤون البيت ، فقد أخذ أورليك الشاب على عاتقه غسل الملابس وتنظيف الأواني وتكسير الحطب ، واستقل الكهل بشؤون الطبخ والطهى ؛ على أن هذه الأعمال المنزلية الهينة كان يتخللها أوقات طويلة للعب الورق ورصف « الدومينو »

أبداً لم ينشب بينهما خصام ، أو يحتدم جدل ، أو تسوء كلمة ؛ وكيف يختصمان وكلاهما هادئ الطبع ساكن القصد حلو الشمائل ؛ ثم هما فوق ذلك راضيا نفسيهما على مكروه هذه الحال ، وأخذاها باحتمال حياة الجبال

وفى بعض الأحايين كان الأب « كاسبار » يتنكب بندقيته وينطلق بها إلى صيد الوعول فيعود منها من حين لآخر بطائفة صريعة . ولا تسل حين ذاك عن الوليمة الفاخرة التى ينعم بها الرجلان فى جوسق چاورانباش على شرف هذا الصيد

فى أحد الأيام انطلق كاسبار إلى الخلاء لهذا الصيد ، وكانت درجة الحرارة ترقم الثانية عشرة تحت الصفر ، والشمس لم تبرح خدرها بعد . وظل أورليك الشاب راقداً حتى الساعة العاشرة ، فلقد كان نؤوماً لا يمنعه من متابعة النوم إلا خجله من رفيقه الذى اعتاد أن يفيق باكراً . وتبلغ الساعة العاشرة فيستيقظ صاحبنا ويتناول إفطاره مع كلبه سام الذى ألف الرقود بجانب الموقد سحابة النهار وسواد الليل ؛ ويفرغ أورليك من الطعام ، فإذا الوحشة ترين على قلبه والوحدة تسود نفسه ، وإذا هو يحس فراغ زميله ويأسى لفراقه هذه الساعات القصار ، ثم ... ثم يمد يده إلى ورق اللعب فلا يجد من يشاركه فيه . وعلى هذا فقد خرج من الجوسق ليروّح عن نفسه ولينجو من وحدته بضع ساعات قبل أن يعود زميله من صيده

كان الثلج قد ملأ جميع الأودية والأهضبة ، وساوى باليفاع التلاع وبالنجاد الوهاد ، فلم يعد يطالع العين منظر البحيرتين الزجراجتين ، ولا يلفت النظر بروز الصخور السوداء ؛ فالقمم الشم خائضة لجج الثلج ، والقلل الهائلة متكفنة الجسم بكفن الجليد لا يفصل قمة من قمة إلا أقبية هائلة منتظمة من ثلج ، أو حفر واسعة ممرّدة من جليد

ويتوجه أورليك صوب اليمين ، ويسرع خطاه إلى لوورن ضارباً جلامد الصخر بعصاه الحديدية

الصلبة ملتمساً ببصره تلك النكتة السوداء المتحركة التي كانت تلوح على البعد بين تلك البسط الثلجية الواسعة . وإنه لكذلك وإذا الشمس تتضيف للمغيب فتنضر خدود الثلوج البيض بلون الورد ، ثم تدع للرياح اليابسة السافية سبيلاً إلى أحضان الثلج تنشر رغاءه وتبعثر نثاره وتطوح بمندوفه أباديد ، ويطلق « أورليك » نداء حاداً طويلاً مهتزاً فإذا رجع الصوت يدوى ويتراجف خلال سكون مهيب هائل ، وإذا رنينه يسافر إلى تلك الأمواج الساكنة الساكتة من الثلج ، واللجج العميقة السحيقة من الجليد ، ثم يضل ويفنى في يهماء رحيبة متناهية من الصقيع . وأرعدت فرائص أورليك لهذا السكون المروع فخيل إليه أن ذلك الصمت الموحش ، وتلك الرياح المتجلدة ، وهاتيك الوحشة الرائنة ، تنفذ إلى كيانه وتزلزل جسمانه ، ثم تجمد الدم في عروقه وتجعل منه كائناً ساكناً لا يتحرك ولا يريم . فلم يجد وسيلة للنجاة من وحشته وخوفه إلا أن يبتدر الجوسق ، فمضى إليه وهو يردد في نفسه : إن « كاسبار » قد عاد من صيده ولاشك ، وكأني به قد جلس إلى مقعده أمام الموقد المضرم وتحت قدميه ما اصطاده من وعول . وبلغ الجوسق فلفت نظره أن خيطاً من الدخان ولو دقيقاً لا يتصاعد من المدخنة ، ففتح الباب في سرعة وقلق ، وإذا الكلب « سام » يدلف إليه ويحييه ولكن أين هنري كاسبار ؟ ويضرم الشاب النار وينضج الحساء آملاً أن يعود رفيقه كاسبار فيجد الطعام مريئاً والجو دافئاً ، لكنه لم يعد . فكان «أورليك» يخرج من آونة لأخرى كي يتبصر شبحه يدلف أو يسمع صوته يدوى . ولكن الليل أقبل بظلمته المشوبة بلألاء الثلج ولم يعد « كاسبار »

وانقلب المسكين إلى الجوسق يائساً فجلس إلى الموقد يصطلي وقد ذهبت به الأظانين والشكوك كل مذهب

أيمكن أن يكون كاسبار ضل طريقه وتشابهت عليه مسالكه ؟ أيحتمل أنه قابع الآن في أخدود عميق من الجليد كسير الرجل أو مهشم الذراع ؟ يرجفه القر وتولول فوق رأسه ثواكل الريح الصاردة ؟ أيجوز أنه يوالي الصرخات ويتابع الاستغاثات فلا يجد صريخاً ولا منقذاً ؟ وكيف ينقذه إنسان أو يمد له بشر يداً والجبال موحشة عالية ، والوديان رحيبة خالية لا تتحرك فيها نأمة ولا يتنفس ذو رئة

ومع هذا فقد أجمع « أورليك » أمره على البحث عن صاحبه إن أقبل نصف الليل ولم يؤب من صيده . ويأخذ في تهيئة نفسه وتحضير زاده وعتاده فيتناول كلابه الفولاذي ويتمنطق بحبل متين دقيق ويمتحن صلابة قضيبه الحديدي ومقاومة فأسه المعد لحفر جلامد الجليد . ثم يتنظر إلى نصف الليل بينما الحطب يتأرث في الموقد والكلب يغط على ضوء النار ، والساعة ترسل في الجو خفقات « بندولها » الراعب الراعش . كان الفتى يرهف السمع إلى عويل العواصف وهي تلطم وجوه القمم البعيدة ، ودمدمة الريح الغاضبة وهي تصفع جدران الجوسق ونوافذه ؛ حتى إذا دقت الساعة الثانية عشرة استوى على قدميه وأيقظ كلبه « سام » ثم فتح الباب وانطلق في الظلمة لجهة ويسار وبيل . وفي خلال خمس ساعات كان يصعد كثيباً ثم يهبط إلى هوة ثم يعود ويتسلق تلعة أو جبل من ثلج أو جليد . وفي كل ذلك لا يغفل عن تعليق كلابه في صخور الجليد أو احتفار طريقه بين جنادل الثلج ، أو تعليق حبله بكلابه

الفولاذى إما لإصعاده بنفسه أو نزوله ، أو لجرّ أو إنزال كلبه المسكين . وأخيراً وفى الساعة الخامسة بلغ القمة التى اعتاد زميله « كاسبار » أن يختلف إليها لصيد الوعول . فجلس هناك ينتظر تبلج النور

كانت السماء حين ذاك مشعشعة الأديم مستضاءة الصفحة قليلا ، ولكن على حين غرة أضاء الآفاق نور وهاج لم يعرف مصدره فغمرت الجبال بسناه اللألآء ، وغرقت الكثبان بنوره الوضاء ، ثم أخذ هذا الضوء يمتد ويفترش حتى تلألأت جبال الثلج وتلاع الجليد بسناه الوهاج الرجاف ، إلى مسافة مائة ميل ، وكان يخيل للعين المنبهرة ، أن ليس شمساً واحدة تلك التى تُطلع كل هذه الأضواء ، وإنما بلورات الثلج ، ومرايا الجليد تبثق كل واحدة منها شموساً لا تعد وأنواراً لا تحد . ثم أخذت قمم الثلج العالية البعيدة تتراءى للنظر واحدة بعد أخرى بحللها الحمر الوردية التى نسجتها عليها خيوط الشمس ، فاستحال الكون كله إلى سنى وسناء وجمال وسحر ، وينسرح أورليك بعد إذ أخذ حظه من الراحة ، فى الأودية والهضاب ، والأخاديد والشعاب ، محنى الظهر يتعسّف الآثار ويتلمس مواقع الأقدام ، وهو يقول لكلبه :

— ألا فتش أيها الكلب الضخم عن آثار « كاسبار » سيدك . فيرود الكلب ويجوس ، ويتخلل الحفائر والمضائق والمغائر والأخاويد ثم ... ثم لا يجد لا هو ولا صاحبه شيئاً

ويقبل المساء ، فإذا صاحبنا هو وكلبه قطعا فى يومهم مسافة خمسين ميلاً ، وإذا هما من الإجهاد والتعب بحيث لا يقويان على مواصلة السير إلى الجوسق البعيد ، فيلجآن إلى حفرة منعزلة فى قاصية الوادى ، ويبيتان فيها ليلتهما وقد أضنى « أورليك » عليه وعلى كلبه لحافاً صغيراً ، ثم التصق بكلبه المتعب كى يدرأ عن جسمه زمهرير البرد الذى بات ينفذ إلى عروقه طيلة الليل . لم يغتمض له جفن فى تلك الحفرة الصاردة المظلمة ، لأن الأشباح المخيفة كانت تراود عينه وخياله ، والريح اللاذعة ترعد أطرافه وأوصاله .

وينهض صاحبنا مع الفجر مُصلَّب الأطراف من القر ، مجمد العروق من البرد ، خافق القلب مرعد الفرائص ، يظن كل همسة أو رعشة أو هزة نذير موته فى هذه الأصقاع الثلجية التى لا يعيش فيها إنسان

ويبلغ « أورليك » منزله هو وكلبه الأعرج ، الساعة الرابعة بعد الظهر ، فإذا المكان خال موحش ، فيأكل الشاب طعامه ثم ينام تعباً منهوكاً لا يفكر فى شىء . استغرق فى نوم طويل عميق غلاّب مما قضاه البارحة من عناء ووعثاء ومشقة ، ولكن أتراه يحلم ؟ ! أتراه يسمع هتفة طائف النوم الذى يهتف فى أذن النائم المجهود والحالم المكدود ؟ إنه ليسمع هذا النداء الضاج الصارخ بجميع حواسه ومشاعره : نداء هائل مزعج ما إن ينزلق من أذنيه حتى ينفذ إلى أعماق أعصابه المرتجفة الثائرة ، وإذاً فإن صوتاً يناديه ويدعوه إليه ، ويهيب به من النوم ؟ ذلك حق لا ريب فيه ، وهنا يذعر الشاب ، فينتفض من سريره إلى الباب ويروح يصرخ عالياً :

— أهو أنت يا كاسبار ؟ ولكن أحداً لم يجبه ، وصوتاً أو ركزاً لم يتأدّ إلى سمعه ، إنما هو الليل الطويل المعتكر وشعشعة الثلوج المتعاكسة ، وأنين الرياح النادبة ، ثم صفير العواصف الغاضبة على الجبال والوهاد والحفر ، ثم سكون الموت ووحشة الفناء ، ولا شىء بعد ذلك . ويصرخ « أورليك » : كاسبار ، كاسبار ! ثم يصغى ويصيخ ، ولكن كل شىء يظل أخرس لا يجيب

وصامتاً صمت الموت ، فتستقل رواعد الذعر عظام الشاب وينكفىء إلى مُنعزله الموحش ، فيسقط المزاليج ويحكم قفل الباب ، ثم يتهاوى واجفاً راجفاً على كرسى أمام الموقد ، ثم يأخذ فى التفكير : إن « كاسبار » الآن رهين حفرة عميقة من الجليد منذ ليلتين ؛ إنه فى أخدود سحيق ، هو فى نصاعة بياضه أهول منظراً من قطع الليل الفاحمة ، أوعتمة المغائر الموحشة ؛ إنه ليحتضر فى هذه الحفرة منذ يومين ، وسيموت البائس وحيداً جامد الدم . سيموت وهو يفكر فى صاحبه الشاب ، ثم لا تكاد روحه تخرج إلى فاطرها ، حتى تحلق فوق الجوسق وتدعوه إليها بدعاء رهيب غامض لا تعرف سره إلا أرواح الموتى حين تتصل بأرواح الأحياء . إن روحه الآن لتهتف بروحه النائمة ولكن فى غير ضجة ولا صوت ؛ إنها لتودوداعه وداعاً أخيراً ، أو قل إنها تبغى تعنيفه تعنيفاً مؤلماً ، أو لا هذا ولا ذاك ، إنها لتصب على رأسه لعناتها صباً ، لأنه لم ينقذ صاحبها من حفرته السحيقة . كان « أورليك » يحس هذه الروح الهائمة الغاضبة فى كل ما يحيط به من مكان : وراء الجدار ، وخلف الباب ، وفى صحن المطبخ ؛ وقد كبر في وهمه أنها تحلق وتطير فى جو الجوسق كطائر مذعور ليلى يتهافت على نافذة مضيئة ليلجها . ولقد بلغ الذعر بالفتى لهذه الخاطرة أن كان متهيئاً للعواء من خوفه ورعبه ، يريد الهرب والنجاة بنفسه ، ولكن أنى له الجرأة على ذلك ؟ ! لن يجسر على الهرب من الجوسق ، لأنه سيلقى الشبح المهيب خارجه يتربص به الغوائل حتى يكتشف جسد زميله فيواريه حفرة تدفأ فيها عظامه ويستريح رفاته . وطلع النهار فهدأ روع المسكين قليلاً ، واطمأنت نفسه الراعشة إلى شعاع الشمس ، يؤنسه من وحشة ويؤمنه من خوف . فطعم وأطعم كلبه ، ثم جلس أمام الموقد جلسة البارحة يفكر فى زميله المنطوى في غيابة الثلج . ويدهمه الليل فيعتاده الذعر ويلم به طيف الأمس ، وإذا هو واجف راجف ، وحيد فريد كأوحش ما تكون الوحدة ، وأهول ما يكون الانفراد . هو وحده فى هذه الصحراء الثلجية الرحبة على بعد ألفى متر فقط من العمران ، والسكان ، والحياة والحركة والضجيج ؛ وهنا يخطر له أن ينجو بنفسه من هذا القبر الثلجى الوسيع ولْتَجرَّه قدماه إلى حيث ألقت ... ولكن أنى له هذا وهو لا يجرؤ حتى على فتح الباب ؟ . وعند منتصف الليل ، وحين أعياه ذرع الغرفة ، وأنهكت أعصابه خطرات الطيف ، نام المسكين على مسند المقعد ، لأنه كان يخاف سريره كما يخاف مغارة مسكونة بالأرواح . ولكن يا لهول هذا الصوت ! إنه ليقرع أذنيه مدوياً مجلجلاً صاخباً غاضباً حتى ليلقى المسكين أرضاً هو ومقعده ، ويفيق الكلب فزعاً لهذه الضجة فيأخذ فى نباح مدوٍّ ثم يدور بأركان المنزل ، ويجوس نواحى الجوسق كى يعرف مأتى هذه الضجة ومرجع هذا الصوت ، ولكنه حين لم يجد أحداً أقعى بجانب الموقد حذراً قلقاً منتصب الرأس ملتمع العين يزمجر ويدمدم . وثاب إلى أورليك هدوؤه قليلاً فراح يلتمس من « البوفيه [1] » زجاجة من العرق طفق يجترعها كأساً كأساً حتى إذا أتى عليها عاودته شجاعته العازبة ، وراجعه حلمه الذاهب ، ثم تلاشت مخاوفه فى جو من الإبهام والغموض

وأقبل الغد فلم يذق أورليك طعاماً وإنما اكتفى بجرعات « الكحول » تلهب عروقه الجامدة بحميا

(١) استعملنا هذه اللفظة لأننا لم نجد مقابلها فى العربية

النشاط ، وتقيم حول دماغه وحواسه سوراً من نسيان ...

وتوالت الأيام على هذا الحال لا يطرق مسمعه هاتف رفيقه الموءود حتى يأخذ فى الاجترار والعب والعل والنهل ، ثم ... ثم يسقط على الأرض سكران لا يعى ولا يحس ، ولكن ما يكاد يستفيق إلى نفسه حتى يدوى فى أذنيه النداء الهائل المرعب : « أورليك ، أورليك » فينتصب المسكين على قدميه الراجفتين كأن هذا النداء رصاصة تنفذ فى دماغه ، ثم يترنح سكراً ويميد فزعاً فيستدعى كلبه « سام » إلى مجدته ، ويتراكض الحيوان وقد أصبح مجنوناً مسعوراً كسيده ، إلى الباب يخدشه بأظفاره المرهفة ويقرضه بأنيابه الحادة اللامعة ، على حين ينتصب سيده أمام « البوفيه » مبطح العنق مزلزل الرأس مرنح العطف سكراً يعب جرعات العرق الحارة كما يعب مسابق مجهود كؤوس المرطبات الباردة ، ثم هذيان ونسيان وغيبوبة ليس معها فزعه الهوم وطائفه الدوم

ومضت أسابيع ثلاثة ، فنفد ما عنده من خمر ، وما فى « البوفيه » من « كحول » ، وأصبح المسكين وقد اجترع آخر نقطة من العرق أشد تهيباً للنداء المدوى وأرهف شعوراً بالطيف الهاتف : فإن إدمان شهر على الخمرة ما زاد مخاوف المسكين إلا تيقظاً وتركزاً فى عقله الباطن . فهو يغدو الآن ويروح مفزعاً مروعاً لا يفتأ يلصق أذنيه على جدار الجوسق ، أو يرهف سمعه على باب المنزل ، والصوت مع ذلك لا ينقطع دويه ولا يفتر هتافه : « أورليك » « أورليك »

فى ذات ليلة قد أخرجه هذا النداء الملح عن طور جبنه ، ابتدر الباب كي يتعرف ذلك الشخص الذى يناديه ، وكي يرغم ذلك الصوت الثرثار على الصمت والخرس . ولكن ريحاً مثلجة ترجف العظم وترعد الفرائص ، أرغمته على إغلاق الباب وإسقاط المزاليج . فأغلقه دون أن ينتبه إلى أن كلبه « سام » ألقى بنفسه خارج الباب . وترجف أورليك رواعد البرد وهزاهز الفزع فيسرع إلى المدفأة يؤرث نارها ويذكي ضرامها ، ولكنه ما يكاد يفعل حتى يقف شعر جسده هولاً وذعراً ، لأن يداً خفية كانت تخدش الباب وأنيناً مروعاً كان يعقب هذا الخدش . ويصعق الخوف « أورليك » فيصرخ : أخرج من هنا ، إليك عنى . فلا يجيبه إلا أنين ضارع وعواء باك

وهنا . هنا فقط يغادر رأسه كل ما بقى فيه من رشد وصواب فيدور كالمجنون على نفسه ويقول :

— إليك عنى ! أخرج من هنا : ولكن العواء الباكى ، أو البكاء العاوى لا يلتفت لأوامره بل يدور حول الجدران ، ويحدق بأركان الجوسق وينفذ من تحت الباب . وامتلأ قلب الشاب فرقاً ورهقاً فأسرع إلى منضدة « البوفيه » الملوءة صحوناً وكؤوساً ، ثم رفعها بين يديه بقوة الجبابرة المجانين ثم وضعها أمام الباب ، فتم له بذلك متراس هائل حصين أخذ يكدس فوقه أدوات المنزل ، وأشياء المطبخ ، ثم فراشه وسريره ووسائده ، ثم كل ما وقعت عليه عيناه من آنية أو آلة أو كرسى حتى لقد تعرم أمام الباب تل ينطح السقف ويسد منافذ الهواء

ولكن نداء الكلب الصارخ أصبح الآن خارج المنزل عويلا مبكياً وأنيناً مشجياً لم يلبث « أورليك » نفسه أن أخذ يجيبه بمثله

وانقضت أيام وليال وهذان العواءان لا ينقطعان عن الترداد والدوى : عواء منتقل سيار من الخارج يخدش الباب ويلطم النوافذ ويهم بتقويض

الجدران ، يقابله عواء من الداخل ، لا يفتأ صاحبه وهو يتبع حركات الأول ينشر أذنيه على الحائط أو يكدس الأشياء على المتراس ، أو يبادل العواء الخارجي : نباحاً بنباح وأنيناً بأنين

ويمسي المساء ، وإذا صاحبنا « أورليك » لا يسمع البكاء المدوى ولا الأنين العاوى ، وإذا سكون طويل عميق طويل يرين على جو الجوسق . هنالك يتهافت المسكين على مقعد خائر العزم موهون القوى مصعوق الرأس ، ثم يسلم نفسه إلى نوم عميق غلاب ... ويستفيق «أورليك» بعد ساعات ، وقد تكون أياماً ، فارغ الرأس من الرشد ، خالى الذهن من الذكرى ، كأنما أفرغ كل ما فى دماغه فى هذه النومة التى غرق فيها ، ويحس بالجوع ينهش معدته فيقبل على الطعام إقبال الهيم

* * *

وأقلع الشتاء بقضه وقضيضه وثلجه وبرده ، فعادت المسالك ممهدة والمصاعد معبدة ، وأصبح معبر « جه مي » سالك الطريق ذخار الحركة فتتخذ أسرة «هوسار» سبيلها إلى جوسقها الجبلى . وكانت طيلة الطريق فى حديث الدليلين اللذين تأخرا هذه السنة عن النزول لاستقبالها مع أن ذلك دأبها كل عام . وأخيراً لاح لأسرة « هوسار » شبح الجوسق مقموراً بالثلج محاط الجهات بالجليد ، ولكن بابه كان مغلقاً ، وخيوط دقيقة من الدخان كانت ترتفع من مدخنته . ويقترب الأب هوسار من عتبة الجوسق فإذا هيكل عظمى لحيوان نافق يطالع بصره . وتحدق العائلة فى هذا الهيكل العظمى الذى تناوشته قشاعم الجبال ثم تقول الأم « هوسار »

— لكأنى به هيكل كلبنا «سام» ! قالت هذا وراحت تردد :

— أيها الأب كاسبار ، أين أنت يا كاسبار ؟

وهنا أجابتها من داخل المنزل صرخة مدوية لا تخرج إلا من فم ثور هائج . وأعاد الأب هوسار النداء فارتدت الصرخة المرعبة تجلجل فى آذان الأسرة . ويعتزم الأب وأبناؤه اقتحام الباب المسدود ؛ غير أن الباب صمد لهم أولاً ثم خضع وانكسر حين دفعوه بقائمة خشبية ، ولكن ما كاد ينفتح حتى ارتفعت فى الجو صرخة مدوية ، ثم أبصروا ويا هول وأغرب ما أبصروا : أبصروا وسط الغرفة رجلاً مسترسل الشعر حتى الكتفين ، طويل اللحية حتى الصدر ، أغبر أشعث ممزق الثياب زائغ البصر هائل المرأى .

لم تعرف الأسرة أولا هذا الغول البشرى ، ولكن الابن لويس قال :

— إنه أورليك يا أماه . ثم أمنت الأم على قوله :

— نعم يا بنى إنه بعينه رغم شعوره البيضاء .

وسمح أورليك لأسياده بالاقتراب منه ، وأذن لهم بلمس جسده ولكنه لم يجب بكلمة على الأسئلة الملقاة عليه . على أن الطبيب وضع حداً لكل هذه الشكوك حين أعلن للأسرة فى الغد أن «أورليك» مجنون .

ولكن أين رفيقه الكهل كاسبار ؟ أى حادث عصف بعقل المسكين ؟ ثم من قتل الكلب الأمين ؟ ؟

تلك أسئلة لم تجد لها الأسرة أجوبة وا أسفاه !

« حلب » كمال الحريرى

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾